السيميائية

مفاهيم، اتجاهات، أبعاد.

الأستاذ: **إبراهيم صدقه.**
جامعة فرحات عباس
سطيف

تحاول المداخلة أن تتلمس حدود السيميائية ومجالاتها وأبعادها. مع التركيز على موضع اللغة بين نظم العلامات والمجموعات التي قسمت إليها العلامة. سواء عند دي سوسير، أو عند بيرس، والطريقة التي تؤدى بها اللغة.

وأقصد **بالمفاهيم**: التاريخ والنشأة، و الفرق بين المصطلحات المستخدمة في الثقافة الغربية، بنوعيها الأوربية والأمريكية، وفي الثقافة العربية، ثم مفهوم العلامة.

أما **الاتجاهات**، فتعني: المدارس التي ظهرت في الدراسات البشرية، والنقاد الذين يمثلونها باختصار.

وأما **الأبعاد** فتعني : البعد التركيبي، والبعد الدلالي، والبعد التداولي.

المفاهيم

أولا : **المفهوم الغربي:**

عرفت الثقافة الغربية -الأوروبية والأمريكية- منذ مطلع القرن العشرين مصطلحين في ميدان التحليل السيميوطيقي للنص الأدبي، هما السيميولوجيا والسيميوطيقا. هذان المصطلحان لهما أصل واحد يعود إلى الثقافة اليونانية القديمة، المتداول آنذاك باسم " Semeion"، ويعني "علامة" و"Logos" ويعني "خطاب". وقد حاولت "جوليا كريستيفا" أن تتبع تطور هذا المصطلح، وتوصلت إلى أنه كان سائدا في الفكر اليوناني عند "الرواقيين"(Les Storciens) «وكان عند

هذه المدرسة من المفكرين تصور للعلامة على شكل مثلث: المشار إليه، المفهوم الذهني، اللفظ. وتضيف إلى ذلك أن هذا التصور القديم لم يوجد فقط في الفكر الأوروبي، بل نجده عند العرب أيضا، وفي شرح ابن سينا، مثلا لأرجانون أرسطو ...».

بالإضافة إلى ذلك انه كان موجودا في لاهوتية العصور الوسطى، إذ «نجد في العصور الوسطى، في نفس الاتجاه، اهتماما جديدا بطرق الدلالة (Modi Significandi)، ووضع دراسة إنتاج النظام الدال قبل تحليل النظام. ولكن هذا العلم للدلالة لم يعش لأنه كان مرتبطا بحدود الإلهيات».

وقد تطورت السيميوطيقا مع بداية القرن العشرين بعد الدراسات التقليدية للفيلولوجيا. ويعد كل من فرديناند دى سوسير (1857-1913) والفيلسوف البرغماتي الأمريكي "شارل ساندرز بيرس" (1839-1914) من مؤسسي هذا العلم بمصطلحين مختلفين: الأول اختار مصطلح "سيميولوجيا" (Sémiologie). والثاني اختار مصطلح "سيميوطيقا" (Sémiotique). وقد كان هذا الثنائي الأساس الفعلي الذي انطلقت منه الجهود الكبيرة لتأسيس هذا العلم الجديد الذي يقوم على دراسة التواصل البشري ودراسة الدلالة.

وتعد بداية الستينيات من القرن العشرين البداية الفعلية والظهور الحقيقي للسيميوطيقا. ثم انتشرت بسرعة كبيرة في أنحاء العالم، وتكونت هذا العلم مدارس وجمعيات عالميه مثل، الجمعية العالمية في باريس عام 1969 التي تقوم بإصدار دورية بعنوان "سيميوطيقا" وتضم باحثين من دول كثيرة منهم "جوليا كريستيفا" و"جان كلود كوكيه" من فرنسا، "وامبرتو إكو" من إيطاليا، و" يوري لوتمان" من روسيا، و"سيبيوك" من الولايات المتحدة الأمريكية، وغيرهم. وقد اتضح مفهوم "السيميوطيقا" وتبلور أكثر من خلال الأعمال التي قدمها "غريماس"، مفضلا استخدام هذا المصطلح (Sémiotique). و«المصطلحان سيميوتيكا Semiotic

وسيميولوجيا Sémiologie) مترادفان الأول من الإنجليزية والثاني من الفرنسية (وتكون إذن ازدواجيا فرنسياSémiotique انطلاقا من المصطلح الإنجليزي) سيتعايشان لمدة طويلة إلى أن يوضع تمييز منهجي بين سيميولوجيا وسيميوطيقا: "تمثل كل سيميوطيقا: أو سمي Semie بالنسبة للميدان السيميولوجي ما يملكه كل لسان Langue بالنسبة للغة Le langage».

نحن إذا أمام مصطلحين متداولين في الثقافة الغربية -الثقافة الأوربية والثقافة الأمريكية- هما: "سيميولوجيا" و"سيميوطيقا". وقد حاول الباحثون تعريف كل مصطلح على حدة وشرحه وتبيان وظيفته. فالسيميولوجيا هي «ذلك العلم الذي يبحث في أنظمة العلامات لغوية كانت أو أيقونية، أو حركية. وبالتالي فإذا كانت اللسانيات تدرس الأنظمة اللغوية، فإن السيميولوجيا تبحث في العلامات غير اللغوية التي تنشأ في حضن المجتمع. إن اللسانيات هي جزء من السيميولوجيا، حسب سوسير Saussure، ما دامت السيميولوجيا تدرس جميع الأنظمة كيفما كانت سننها وأنماطها التعبيرية: لغوية أو غير لغوية». كون النظام السيميولوجي ليس دائما بالضرورة يكون لغة، فقد يكون رسما. المهم أن يكون التعبير بوساطة أنظمة من العلامات، قد تكون علامات السنن لسانية وقد تكون أنظمة علامات أخرى. ولكن الهدف يبقى واحدا وهو التواصل. فإذا أخذنا مثلا كلمه (شجرة) فإن هذه المادة الصوتية المكونة من أربعة أحرف أو فونيمات تسمى بالدال (Signifiant)، والذي يشير إليه وهو هذا النوع من الشجر ذو الأغصان الكثيرة والكثيفة الضارب بجذوره في الأرض المشرئب نحو العلا، يسمى بالمرجع (Référent). والمعنى الذهني للكلمة يسمى بالمدلول (Signifie). والسنن المستعمل هو اللغة العربية، ويجب أن تكون مفهومة من طرف المتلقي (Récepteur). هكذا:

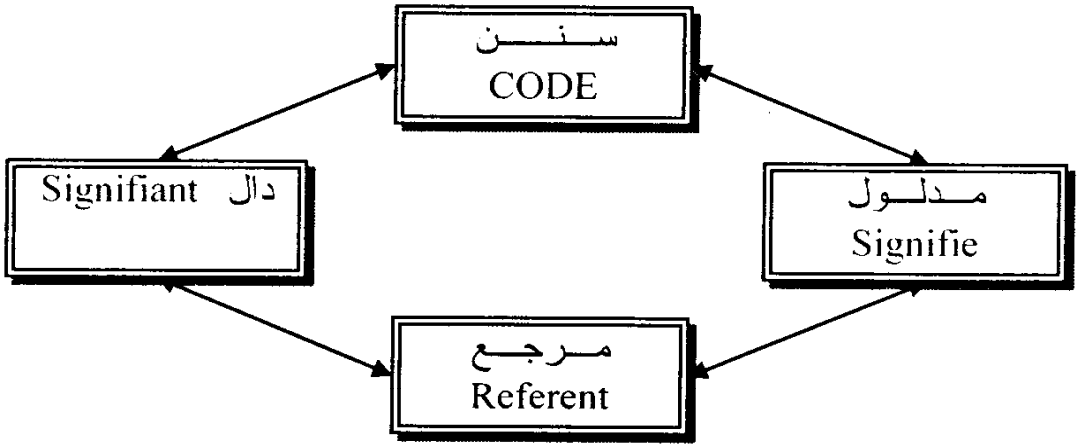

ويمكن أن نعبر عن كلمة "شجرة" عن طريق الرسم، أو أي وسيلة أخـرى من الوسائل المختلفة مثل الإيحاءات أو استخدام كلمة "حفيف". وهذا كله من شـأنه أن يساعد المتلقي على فك الأنظمة السيميائية، ويبقى التواصل حاصلا كون اللغـة نظاما سيميولوجيا.

هذا التعريف هو نفسه-أو يكاد- الذي عرف به مصطلح "السيميوطيقا" التي هي عبارة عن «دراسة شكلانية للمضمون، تمر عبر الشكل لمساءلة الدوال مـن أجل تحقيق معرفة دقيقة بالمعنى». وهذا يعني أن المضمون يتكون -هو الآخـر- من شكل ومضمون؛ لأن الباحث في ميدان السيمائيات لا تهمـه المعـاني التـي يتضمنها الشكل، بقدر ما تهمه الكيفية التي قيل بها هذا المضمون، ومن ثـم فـإن لهذا المضمون شكلا. «وقد ظل الاسمان معا (سيميولوجيا وسـيميوطيقا) إلـى أن اتحدا تحت اسم السيميوطيقا بقرار اتخذته "الجمعية العالمـة للسـيميوطيقا" التـي انعقدت في باريس (يناير 1969، وإن ظل البعض يستخدم الاسمين السابقين».

وإذا كان هذا هو معنى المصطلحين المستخدمين في الثقافة الغربية، فمـا معنى مصطلح "السيميائية" في الثقافة العربية؟ وهل يؤدى المدلول نفسه الذي يؤديه كل من المصطلحين السابقين؟ وهل السيميائية هي المصطلح الوحيد المستخدم فـي ثقافاتنا وكتاباتنا؟ ذلك ما نحاول معرفته الآن بشيء من الإيجاز.

ثانيا: **معنى السيمياء في الثقافـــة العربيـــة.**

يقول الأخضر بوجمعة: «أنا في علمي أن السيميائيات الأدبية لم تعرف بعد بصفة مدققة، على كل فإن كلمـــة "الســـيميائية" التـــي اســـتعملت كمقـــابل لـــ "Sémiotique" اشتقت من كلمة سمة التي جائت في الآية الكريمة ســـيماهم فـــي وجوههم من أثر السجود﴾.

يمكننا أن نستنبط من هذا القول شيئين هما: أن المصطلح لما يتبلور بعـــد عندنا. وأن له جذورا في التراث العربي، وفى دستور اللغة العربية، وهو القـــرآن الكريم. لأن كلمة "سيماهم" تعنى "علامتهم".

وقد وردت كلمة "سيماهم" فهي مواضع كثيرة من القرآن الكريم. وردت في الربع الأول، وفي الربع الثاني، وفي الرابع الأخير. يقـــول الله تعـــالى:﴿تعرفـــهم بسيماهم، لا يسألون الناس إلحافا﴾. ويقول تعالى: ﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم﴾. ويقول تعالى: ﴿ونادى أصحاب الأعـــراف رجـــالا يعرفونهم بسيماهم﴾. ويقول تعالى أيضا: ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بســـيماهم ولتعرفنهم في لحن القول﴾. ويقول تعالى: ﴿سيماهم في وجوههم من اثر السجود﴾. وكل هذه الكلمات تؤدي معنى "العلامة"، حسب بعض التفاسير التي تطرقت إلـــى هذه الآيات.

وقد وردت كلمة "السيمياء" في المعجم الوسيط مرادفة لكلمة "السيماء" حيث جاء فيه ما يلي: «السومة: السمة والعلامة. و-القيمة. السيمة: الســـومة. الســـيما: العلامة. وفى التنزيل العزيز ﴿سيماهم في وجوههم من أثر الســـجود﴾. الســـيماء: السيما. السيمياء: السيما».

هذه المصادر التي وردت فيها كلمة "السيمياء" بمعنى العلامة، من شأنها أن تجعلنا نستخدم هذا المصطلح استخداما موحدا، دون اللجـــوء إلـــى المصطلحـــات الكثيرة التي نجدها منتشرة في مؤلفاتنا، وخاصة في ميـــدان اللســـانيات العربيـــة

الحديثة، إذ نجد عددا لا يحصى من المصطلحات، الأمر الذي يحدث إشكالا بالنسبة إلى القارئ. فعلى الباحثين والنقاد والمشتغلين في ميدان الترجمة أن يترجموا المصطلح الأجنبي بمصطلح "السيمياء"، وبذلك نتجنب فوضى المصطلحات.

وقد أشار الدكتور عبد الله بوخلخال إلى هذه القضية بقوله: «وقد عرف في اللسانيات العربية الحديثة مصطلح "سيميوطيقا" عددا كبيرا من الألفاظ في الخمسين سنة الأخيرة منها: علم الدلائل، علم العلامات، علم الدلالة، علم المعنى، علم دراسة المعنى، علم العلاقات، علم الإشارات، علم الرموز، علم الأدلة، الأعراضية، العلامية، علم السيمياء، السيميائيات، والسيمياء، بالإضافة إلى السيمالوجيا، والسيميولوجيا، والسيميوطيقا، والسيميوتية، والسيماتيك».

هذا الخضم من المصطلحات يمكن الاستغناء عنه بمصطلحين هما "السيمياء" و"علم الدلالة". وهناك من الباحثين من يطابق بين علم السيميائيات وعلم السيميولوجيا، وهناك من يفرق بين السيميولوجيا والسيميوطيقا، تفرقة بسيطة ويجعل الاختلاف بينهما يسيرا. والمهم عند هؤلاء «هو أن السيميولوجيا تعنى بدراسة نظام محدد من أنظمة التواصل، من خلال علاماته وإشاراته، ودراسة الدلالات والمعاني أينما وجدت، وعلى الخصوص في النظام اللغوي. أما السيميوطيقا فتهتم بدراسة الاتصال والدلالة عبر أنظمة العلامات في علوم مختلفة».

وهناك من النقاد العرب من يطابق بين مصطلحي "علم الدلالة" و"السيمياء" حيث يذهب محمد عزام إلى أن «علم الدلالة أو السيمياء هو علم تفسير معنى الدلالات والرموز والإشارات وغيرها، ويعد من أحدث العلوم في ميادين اللغة والأدب والنقد وهو امتداد للألسنية... وتطوير لها، لأنه يعتمد عليها أصلا. ويقوم علم الدلالة (السيمياء) بدراسة أنظمه العلامات واللغات».

ثالثا:**المصطلحات المستعملة في السيميائية:**

لكل علم قوانينه وإطاره الذي يتحرك فيه، ووعاؤه الذي يوضع فيه، وأداته التي يستخدمها لبلوغ غاياته، ومصطلحاته التي تضبطه وتحده، حتـــى لا يختلـــط بغيره من العلوم الأخرى، ومفاتيحه الخاصة التي بها يلج الباحث إلى ميدانه.

وأهم المصطلحات التي تستخدمها السيميائية هي:

1. النظـــام: إن أي إرسالية يقوم صاحبها بنقلها إلى الغير لابد من أن تكـــون وفق نظام خاص، وعلى قواعد مستقرة تجعل المتلقي يتعرف عليـــها، ويســـتطيع التفرقة بينها وبين غيرها من الإرساليات والوحدات الأخرى. فكلمة "هاتف" مثـــلا. كلمة مركبة وفق نظام معين تجعل السامع يعرف كنهها. ومن ثم فهي "علامة". أما إذا اختل هذا النظام وتشوشت الفونيمات والمونيمات، ووقع فيها تقديـــم وتـــأخير، انتفت العلامة وتعذر التواصل.

2. العـــلامة: لقد أرسى سوسير الأساس الفعلي للسيميائة عندما عرف اللغـــة على أنها نظام من العلامات. معنى هذا أنها الأساس الدال للغة، وهي المادة الخـــلم التي لا يمكن الاستغناء عنها عند القول. وهي عندما يتعرف عليها كـــل أعضـــاء المجتمع، تكتسب صفة الوجود، وينظر إليها على أنها وحدة دالة توحـــي بشـــيء واحد وتداعي واحد. وهذا هو مجال السيميائية ومعيارها، بل هـــي الأداة الذهنيـــة التي أنشأت السيميائية.

إلا أن هذه العلامة لم ينظر إليها بنظرة موحدة؛ بل نظر إليها من جوانـــب عدة حسب المدارس والاتجاهات. فسوسير يعتبرها ثنائية التكويـــن: دال مـــادي، ومدلول ذهني، أي الصورة السمعية والمفهوم. أما بيرس فقد قسمها إلـــى ثـــلاث مجموعات:الأيقونات، والمؤشرات، والرموز. ويميز بينها عـــن طريـــق نوعيـــة العلاقة.

فالأيقون، عبارة عن علامة تمتلك الخصائص التي تجعلها دالة... شريطة أن يشبه هذا الشيء ويكون مستعمل كعلامة عليه. أما المؤشر، فهو علامة تحيل على الموضوع الذي تعينه كونها متأثرة به، وليست مشابهة له وإنما هي مغايرة لأساسه الواقعي. ويقول المثل العربي القديم "رب إشارة أبلغ من عبارة".

وأما "الرمز"، فهو علامة تحيل على الموضوع الذي تعينه بموجب قانون، وفي العادة بموجب تلازمات أفكار عامة تحدد مؤول الرمز، أو هو علامة اختيرت اتفاقا حتى تشي بمرجعها الأساسي، مثل الأضواء التي تتخذ أساسا للعبور: الأحمر، والأصفر، الأخضر. فهذه الأضواء اختيرت عن طريق الاتفاق ليرمز بها إلى التوقف أو التمهل أو المرور.

معنى هذا، انه إذا كانت العلاقة بين الدال والشيء الذي يرمز إليه علاقة تشابه كانت العلامة أيقونا. وإذا كانت سببية أو مسببية كانت العلاقة مؤشرا. أما إذا كانت العلاقة اصطلاحية أو اعتباطية كانت العلامة رمزا... والمهم أن هناك اتفاقا مفاده أن، العلامة عبارة عن شيء مادي يظهر شيئا آخر ذهنيا. أو كما يرى إيكو من أنها نص يغطي نصا أخر. ويرمز إليها بالشكل التالي:

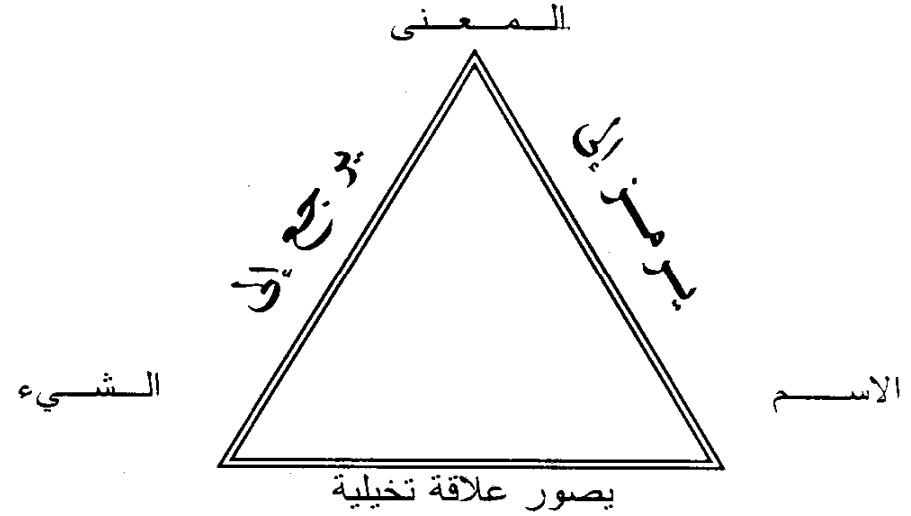

إلا أننا نجد هذا المفهوم يتعرض لنقاش حاد، أحيانا، مصدره عدد غير قليل من الباحثين، أمثال: تودوروف، ومونان، ولوتمـان وغـيرهم، مبينيـن الفـارق الواضح بين العلامة والرمز مثلا... فهذا الأخير، أي الرمز، مسبَّب، أي أن هنـاك علاقة مسببية بين رمز الميزان والعدل. فالرمز هنا يختلف عن الرمز الذي ترمـز إليه الشجرة مثلا. والشيء نفسه يقال بالنسبة للعلاقـة بيـن المؤشـر أو الدليـل والعلامة. فالدخان مثلا عادة ما يكون مؤشرا على النار، ومن ثم فهو دليل وليـس علامة. مما يبين أن العلامة مرتبطة بقصد إنساني للاتصال.

3. بين اللغة والشفرة: كثيرا ما يتداخل مفهوما الشفرة واللغة، ويتبـادر إلـى أذهاننا انهما شيء واحد. إلا أن هناك فروقا بينها تكاد تكون جوهرية. منـها: أن الشفرة حديثة الاستعمال في حين أن اللغة مستعملة منذ القدم. وأن الاصطـلاح أو التواطؤ في الشفرة أظهر منه في اللغة. ففي اللغة اصطلاح ضمني. أما في الشفرة فمحدد، قبليا، وأنها مغلقة. أما اللغة فمعرضة دائما إلى التطـور والنمـو، أي أن «الشفرة قد خلقها الإنسان من أجل الاتصال، بينما اللغة خلق مستمر يجـري مـع عملية الاتصال. ففي الشفرة توجد البداية دائما في رسالة جاهزة. أما اللغة فإنها لا تعطي رسالتها إلا عند وصول القول، فلا يعرف شيئا عن نقطه الانطلاق. ومعنـى انغلاق الشفرة وجمودها أنها نظام ضيق يطابق فيه كل دال مدلولا عليـه واحـدا فقط. بينما اللغة قائمة على تعدد الدوال لمدلول عليه واحد، أو كـثرة المدلـولات عليها لدال واحد».

بالإضافة إلى مصطلحات أخرى تستخدم في ميدان السيميائية، مثل الوحـدة الدلالية، والوسيط، والوظيفة، واقتصاد الكلام...الخ.

ولكن من الذي ينتج العلامة؟ إنه من دون شك الإنسان. فهو الذي يعبر عن أفكاره، سواء أكان ذلك باللسان أم بالقلم أم بإحدى حواسه الأخرى، عنـد إنتـاج العلامة غير اللسانية. ومن دون هذه العلامات لا يتحقق له التواصل الذي يريده.

ومن هنا فإنه لا يمكن أن، نتصور علامات من دون مجتمع. فهي إما موجودة في الإنسان أو في الأشياء التي صنعها الإنسان، كما توجد أيضا في باقي المخلوقات الأخرى. ولكن التي صنعها الإنسان هي التي تكون المدار الذي تدور حوله الدراسات المختلفة.

وقد جاء هذا العلم، السيمياء، لتدعيم الصلة بين العلوم الإنسانية وبقية الحقول الأخرى ذات الطابع المعرفي والثقافي، حتى وإن كان خاصا بأنظمة العلامات والإشارات واللغات. فهو يندرج ضمن العلوم الخاصة بالدراسة والتحليل والإثراء والتحقيق.

الاتجاهات:

لا يمكن أن نلم بكل الاتجاهات التي سادت الدراسات السيميائية في مثل هذه المداخلة، ولكن أشير فقط إلى أن هناك تباينا كبيرا بين الباحثين فيما يتعلق بتفريع السيميائية إلى مدارس واتجاهات. فمحمد مفتاح يقسم النظرية اللسانية إلى عدة تيارات، ويذكر منها:التيار السيميوطيقي -وهو التيار السيميائي عنده- ثم التيار التداولي، والتيار الشعري. ثم يذكر الباحثين الذين ينتمون إلى كل تيار.

أما (مارسلو داسكال) فيحصرها في ثلاثة اتجاهات، هي: الاتجاه التواصلي والاتجاه الدلالي، والاتجاه التعبيري. وأما محمد السرغيني فيفرغها إلى ثلاثة اتجاهات: الاتجاه الأمريكي، والاتجاه الفرنسي، والاتجاه الروسي.

أما جميل حمداوي، فيحصرها في أربع اتجاهات: الاتجاه الأمريكي، والاتجاه الفرنسي، والاتجاه الروسي، والاتجاه الإيطالي. ثم يفرغ الاتجاه الفرنسي إلى ست اتجاهات، حسب التخطيط البياني التالي:

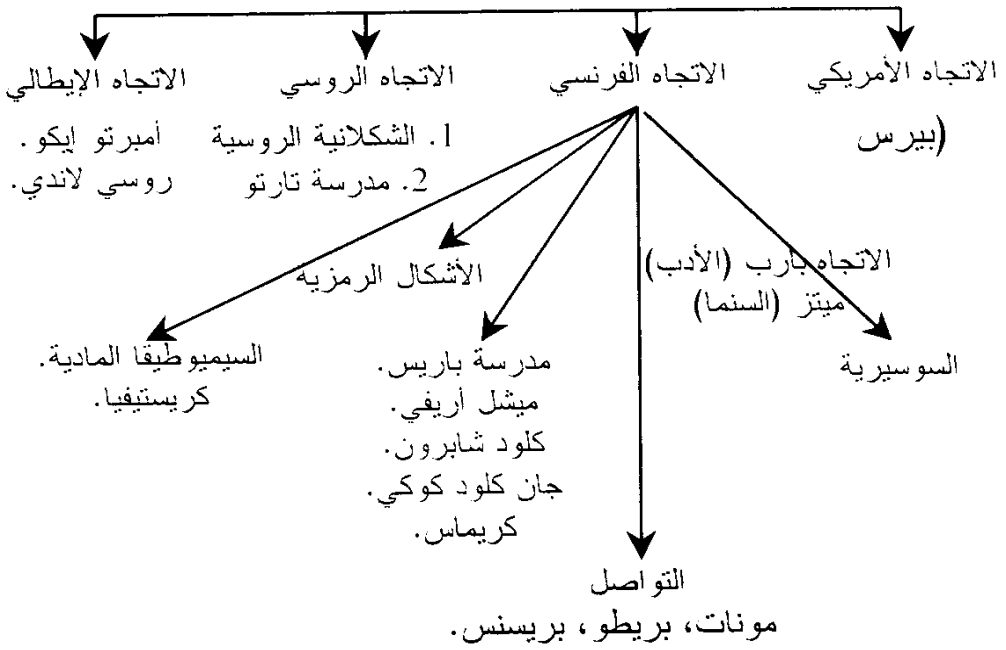

الأبعاد

لقد بذلت السيميائية مجهودا كبيرا في ميدان الدراسات الأدبية، وقدمت مفاهيم جديدة للنص الأدبي، ولفتت انتباه النقاد إلى قضايا نفسية متعددة لم يكونوا على عهد بها من قبل. وأصبحوا ينظرون إلى النص الأدبي من خلال أبعاده المختلفة: البعد التركيبي، والبعد الدلالي، والبعد التداولي.

فعلى مستوى البعد التركيبي، أصبح النقاد يزاوجون في انطلاقاتهم لتحليل النصوص، بين الوحدة والعناصر، أي أن بداية التحليل إما أن تكون من الوحدة الكبرى المتمثلة في النص الأدبي ككل، ثم تفريعه وتشريحه إلى وحدات صغرى، دالة (مونيم) أو غير دالة (فونيم). وإما أن تكون البداية عكسية، حيث يتم البدء من الوحدات الصغرى وصولا إلى المتتاليات والوحدات الكبرى. وسواء أكان ذلك في الميدان النحوي أم في الميدان الصرفي...، وسواء أكان ذلك في ميدان التحليل اللساني أم في التحليل السيميائي...الخ.

أما على مستوى البعد الدلالي، فقد استطاعت أن تفرق بين ما هو دلالي وما هو إعلامي إشاري. وركزت اهتمامها على دراسة العلاقات المختلفة بين الدوال والمدلولات، وبينت أن الدلالة لا تهتم إلا بالمدلول. وطفقت الدراسات الدلالية تنمو وتتطور، آخذة في اعتبارها النص الأدبي ولا شيء سواه. مع اختلاف المدارس المتعددة التي أخذت في الظهور والتنامي عبر كل مرحلة زمنية من المراحل التي عرفتها السيميائية.

وأما البعد التداولي، فقد برز بوضوح في التأويلات المختلفة في الميدان الإجرائي. وظهرت مؤلفات كثيرة توضح الكيفية التي يتم بها تأويل نص من النصوص التع تتم قراءتها، وبينت أنواع القراءات والكيفية التي بها تتم كل قراءة من هذه القراءات. لأن القارئ هو الذي يفسر أو يؤول كيفية إحالة الدليل على موضوعه، انطلاقا من الأسس التي يتكون منها كل نوع من أنواع القراءات، وقواعد الدلالة التي تنطوي عليه.

وخلاصة القول، إن الدراسات السيميائية للنص الأدبي تتميز بحرصها الشديد على فهم العلامة الأدبية في مستوى العلاقة الجدلية بين النص الأدبي والمجالات الثقافية الأخرى، وأن مادتها الأساسية هي العلاقات بين الأنظمة المتعددة، وأن القضية الجوهرية التي تتمركز حولها هي موضع اللغة بين أنظمة العلامات، وأن للعلامة دورا وهو استدعاء الشيء لتحل محله باعتبارها بديلا عنه، وأن الأنظمة -سواء أكانت مكونة من وحدات دلالية أم من وحدات إعلامية- تتسم بسمه أساسية تتمثل في قدرتها على خلق الدلالات وإنشائها، كونها الأساس الفعلي الذي يجعلها تنتمي إلى الميدان السيميائي. وأن السيميائية نظام له خصائصه وأسسه التي يرتكز عليها. وأن هناك علاقات تربط الأنظمة السيميائية. وقد أدى اختلاف النقاد والباحثين وتباين وجهات نظرهم إلى ظهور مدارس نقدية كثيرة واتجاهات متعددة، كان لها الأثر الإيجابي على الأدب والدراسات الأدبية.